تاريخ محمد علي باشا

تولّى محمد علي باشا والفوضى ضاربة اطنابها في البلاد والجهل مخيّم عليها وفيها من الامراء والعظماء والجنود الوف لا همّ لهم الّا اشباع بطونهم باية واسطة كانت يستحلّون كل محرّم ولا يرعون لاحد حرمةً وان شذّ منهم احد واهتدى الى طرق المكارم وحاول الارعواء عن المحارم سفّه قومهُ رأيهُ واقصوهُ وامتهنوهُ . ولشدّة ما عانى الناس من الجور والهوان الفوهما وصار همّهم الاكبر ان يكيلوا للذين دونهم كما يكيل لهم الذين فوقهم لا يُستثنى من ذلك احد ممّن لهم ذكر حتى العلماء وحملة الشريعة الّا واحدًا او اثنين

ولم يكن محمد علي من طينة غير طينة ابناء نوعهِ ولكنهُ كان اعلى منهم همّة واوسع حيلةً مذهبهُ قول ابي تمام السيف اصدق انباء من الكتب وسياستهُ في البلاد سياسة الاميركيين في الارض التي يريدون احياءها يقطعون اشجارها ثم يقلبونها ويحرثونها قبل زرعها واستثمارها . خدمهُ السعد بموت خصومهِ او بنفوذ حيلهِ فيهم وبامتداد اجلهِ فلين الدهر طباعهُ وعلّمهُ الاختبار كيف يصطنع الناس ويستفيد منهم ثم يصلح البلاد ويدخل اليها اسباب العمران ليكثر خيرها لهُ ولولدهِ

وليس من غرضنا ان نذكر حوادث ولايتهِ بالتفصيل لانها كانت كثيرة تضيق عن استيفائها المجلدات بل ان نشير الى بعض الامور الكلية التي يُستدلّ منها على احوال ولايتهِ بنوع عام وعلى مجمل ما فعلهُ في هذه البلاد من حين تولاها الى ان تولاّهُ الفناء

وبديهي انهُ لم يرسم لولايتهِ خطة معلومةً جرى عليها بل سار منقادًا بمقتضى طبعهِ واحوال زمانهِ . ولا بدّ من انهُ عرف سيرة نبوليون وكان يسمع عن افعالهِ وتدويخهِ ممالك اوربا فسوّلت لهُ نفسهُ ان يقتدي بهِ . وكان غرضهُ في اول الامر ارضاء الدولة العلية ولإرضائها سبيلان لا بدّ منهما الاول تعمير خزينتها ولو سلب في هذا السبيل كل ما يمتلكهُ اهالي مصر من نقود وحلي وامتعة ولو باع اطيانهم ومواشيهم وباعهم عبيدًا . وكانت لا تكتفي بل تطلب المزيد فاذا جاء من يدفع اليها ازيد من ذلك اعطتهُ الولاية . والثاني تأمين طريق الحج وارسال المرتبات الى الحرمين الشريفين حتى تبقى للدولة السيادة الدينية على رعاياها لانها هي الرابط الوحيد بينها وبينهم . فما دام الوالي يجمع الاموال الوافرة ويؤمّن طريق الحج ويرسل النفقة الى الحرمين فهو قائم بكل ما يُطلب منهُ ولا يُسأل كيف جمع المال ولا كيف أمّن الطريق . اما اقامة العدل ونشر لواء الأمن وتعضيد الزراعة وتأمين التجارة

والاعتناء بصحة الاهلين ونحو ذلك مما يهتم به ارباب الممالك الآن بل مما كان الفرنسويون يهتمون به وهم في هذه الديار فلم يكن لها ذكر او اشارة حينئذٍ لا فعلاً ولا اسماً ولذلك اتجب الجبرتي بذكر محاكمة الرجل الذي قتل الجنرال كلابر فذكرها بالتفصيل ونوَّه بها واتخذها وسيلة للتوبيخ والتعزير كما تقدم

ورأى محمد علي ان بقاءهُ في الولاية لا يدوم ما لم يكن مورد اموال البلاد في يدهِ فاذا كان لهُ منازع او مزاحم فيهِ فلا هو يستطيع ان يجمع القدر الكافي ولا المزاحمون يمتنعون عن المزايدة واخذ الولاية منهُ . وكان المماليك اكبر مناظريهِ في ابتزاز الاموال فلا يتركون لهُ نصفها ولا اقل من نصفها وكاد واحد منهم وهو محمد بك الالفي يفوز عليهِ في مرضاة الدولة واخذ الولاية منهُ فانهُ لم يكد يمر عليهِ سنة فيها حتى عزلتهُ الدولة بسعي محمد بك هذا وارسلت اليها واليًا اسمهُ موسى باشا وامرتهُ ان يقيم في القلعة فتكون الولاية لهُ بالاسم ويعود المماليك الى سالف عهدهم وتكون ولاية البلاد في يدهم فعلاً وذلك كلهُ لقاء الف وخمسمائة كيس تعهَّد الالفي بدفعها نقدًا ثم اذا كانت الولاية في يدهِ ويد رفاقهِ توالت المزايدة بينهم عليها لا كما اذا كانت لوالٍ واحد . فرأى محمد علي انهُ لا يفوز على الالفي الاَّ بان يزيد عليهِ فيدفع الى الدولة اكثر مما وعدها الالفي بهِ وهذا لا يستطيعهُ ما لم يوافقهُ كبراء البلاد عليهِ فتودَّد اليهم وتلطَّف وزار المشهد الحسيني في عيدهِ وتغدَّى عند السيد السادات واكثر من الركوب والطواف في شوارع المدينة وحسَّن للعلماء حتى كتبوا عريضةً الى السلطان افرغوا فيها جهة فصاحتهم وبيانهم وظنوا ان البلاغة تفعل فعل الدينار وهي بنصها نقلاً عن الجبرتي

"بسم الله الرحمن الرحيم الرؤف الحليم الحمد لله ذي الجلال على جميع الشؤون والاحوال نرفع اليك اكفًّا من بحر جودك مغترفة ونتوجه الى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفة ان تديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والامان بدوام وزير تخضع لمهابتهِ الرقاب وتدنو لهمة سطوتهِ المهمات الصعاب منتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الامور الصدر الاعظم محمد علي باشا ادام الله دعائم العز بقيامهِ وفسح للانام في ايامهِ محفوفًا بعناية الرب الكريم محفوظًا بآيات القرآن العظيم آمين . اما بعد رفع القصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فانا ننهي لمسامعكم العلية وشيم اخلاقكم المرضية بانهُ قد قدم حضرة الدستور المكرم والمشير المفخم مدبر مهمات الاسكلات البحيرية وخادم الدولة العلية الوزير قبودان باشا الى ثغر سكندرية فارسل كتخدا البوابين سعيد اغا وصحبتهُ الامر الشريف الواجب القبول والتشريف الممنون بالاسم الهمايوني العالي

دامت مسراتهُ على مر الدهور والاعوام والليالي . فاوضح مكنونهُ وافصح مضمونهُ بانهُ قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد علي باشا وبين الامراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم امر الحج على حكم سوابق العادات والحال انهُ ينبغي تقديم ذلك على سائر المطلوبات وان هذا التأخير سببهُ كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك لكامل الرعية بالاقاليم المصرية الدمار والاضمحلال وانهت الامراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وانهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات واخراج امير الحج على حكم اسلوب المتقدمين مع الامتثال لكامل ما يرد من الاوامر الشريفة الى ولاة الامور بالديار المصرية وانهم يقومون في كل سنة بدفع الاموال الميرية الى خزينة الدولة العلية ان حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية والرضا بدخولهم مصر المحمية والتمسوا من حضرة الدولة العلية قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فاصدرتم لهم الامر الهايوني الشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار اليهِ لتقرير العداوة معهُ ووجهتم لهُ ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصر الى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وان العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مولانا الخنكار ببلوغ المأمولات المرضية ان تعهدوا بهم وكفلوهم يحصل لهم المساعدة الكلية حكم التماسهم من اعتاب حضرة الدولة العلية . فامركم مطاع وواجب القبول والاتباع غير اننا نلتمس من شيم الاخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فان شرط الكفيل قدرتهُ على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الافعال الشهيرة والاحوال والتطورات الكثيرة التي منها خيانة المرحوم السيد علي باشا والي مصر سابقاً بعد واقعة مير ميران طاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد الروسية وسلب الاموال بغير اوجه شرعية والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الامر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدتنا خصوصاً ما وقع في العام الماضي من اقدامهم على مصر المحمية وهجومهم عليها في وقت الفجرية فجلاهم عنها حضرة المشار اليهِ وقتل منهم جملة كثيرة فكانت واقعة شهيرة فهذا شيء لا ينكر فحينئذٍ لا يمكننا التكفل والتعهد لاننا لا نطّلع على ما في السرائر وما هو مستكن في الضمائر فنرجو عدم المؤاخذة في الامور التي لا قدرة لنا عليها لاننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين اهلكوا الرعايا ودمروهم فانتم خلفاء الله على خليقتهِ وامناؤه على بريتهِ ونحن ممتثلون لولاة اموركم في جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية على حكم الامر من رب البرية في قولهِ سبحانهُ وتعالى يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسولهُ

فان حصل منهم خلاف ذلك فكل الامر فيهم الى مالك الممالك لان اهل مصر قوم ضعاف وقال عليه الصلاة والسلام اهل مصر الجند الضعيف فما كادهم احد الاَّ كفاهم الله مؤنته وقال ايضاً وكل راعٍ مسؤل عن رعيته يوم القيامة. وتفيد ايضاً حضرة المسامع العلية من خصوص القرض والسلف التي حصل منها الثقلة للاهالي من حضرة محسوبكم الوزير محمد علي باشا فانهُ اضطرَّ اليها لاجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الاشقياء والمفسدين والطغاة المتمردين امتثالاً لاوامر الدولة العلية في دفعهم والخروج من حقهم واجتهد في ذلك غاية الاجتهاد رغبة في حلول انظار الدولة العلية. فالامر مفوَّض اليكم والملك امانة الله تحت ايديكم نسأل الله الكريم المنان ان يديم العز والامتنان لسدة السلطان مع رفعة تترشح بها في النفوس عظمتهُ وسطوة تسري بها في القلوب مهابتهُ وان يبقي دولتهُ على الانام وان يحسن البدء والختام بجاه سيدنا محمد خير البرية وآله وصحبه ذوي المناقب الوفية" انتهى

ولم يكتفِ محمد علي بذلك بل وعد كبراء العلماء بالتزام الاقاليم فيملأوا جيوبهم من اموال اخوانهم المساكين وهذا هو الطلسم الذي كان يفتح بهِ الكنوز

وكان محمد بك الالفي قوماً عنيداً حسن النظر في العواقب لا تجوز عليهِ الحيل ولا يصطلي لهُ بنار ولو لم يعاجلهُ القدر لتغيَّر حال هذا القطر حتماً. قال الجبرتي ذهبت اليهِ (بعيد خروج الفرنسوية من مصر) فوجدتهُ جالساً على السجادة فجلست معهُ ساعةً فدخل عليهِ بعض امرائهِ يستأذنهُ في زواج احدى زوجات من مات من اخوانهِ فتغرغر وشتمهُ وطردهُ وقال لي "انظر الى عقول هؤلاء المغفلين يظنون انهم استقروا بمصر ليتزوجوا ويتأهلوا مع ان جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيس وغيرها امون من الورطة التي نحن فيها الآن". ولما اطلق الوزير (يوسف باشا) لابرهيم بك الكبير التصرف واليسهُ خلعة وجعلهُ شيخ البلد كعادتهِ وان اوراق التصرفات في الاقطاعات والاطيان تكون بختمهِ وعلامتهِ اغترَّ هو وباقي الامراء بذلك وازدحم الديوان ببيت ابرهيم بك المرادي وعثمان بك حسن والبرديسي وتناقلوا الحديث فذكروا ملاطفة الوزير ومحبتهُ لهم واقامتهُ لناموسهم. فقال لهم محمد بك الالفي "لا تغتروا بذلك فانما هي حيل ومكايد فانظروا في امركم وتفطنوا لما عساهُ يحصل فان سوء الظن من الحزم. فقالوا لهُ وما الذي يكون فقال ان هؤلاء العثمانيين لهم السنون العديدة والازمان المديدة يتحنون نفوذ احكامهم وتملكهم لهذا الاقليم ومضت الاحقاب وامراء مصر ليس لهم معهم الاَّ مجرَّد الطاعة الظاهرة وخصوصاً دولتنا الاخيرة وما كنا نفعلهُ من منع الخزينة وعدم الامتثال. وقد ولجوا البلاد الآن وملكوها على هذه الصورة فلا يهون عليهم ان يتركوها لنا كما كانت

ويرجعوا الى بلادهم فديروا رأيكم وتيقظوا من غفلتكم"

فلما سمعوا منهُ ذلك صادق عليهِ بعضهم وقال آخرون هذا من وساوسك وقال غيرهم هذا لا يكون بعد ما قاتلنا معهم ثلاث سنوات واشهرًا بانفسنا واموالنا وهم لا يعرفون طرائق البلاد ولا سياستها فلا غنى لهم عنّا . ثم قالوا لهُ وما رأيك الذي تراهُ قال الراي عندي ان نعدّي الى بر الجيزة ونصب خيامنا هناك ونجعل الانكليز واسطةً بيننا وبين الوزير والقبطان ونتم الشروط التي ترتاح نحن وهم اليها بكفالة الانكليز ولا نرجع الى البر الشرقي ولا ندخل مصر حتى يخرج العثمانيون منها ويرجعوا الى بلادهم ويبقى منهم من يقلدونهُ الولاية والدفتردارية ونحو ذلك . فوافق على هذا الراي بعضهم ولم يوافق البعض الاخر وقالوا لهُ "كيف نتابذهم ولم يظهر لنا منهم خيانة ونذهب الى الانكليز وهم اعداء الدين فيحكم العلماء بردتنا وخيانتنا لدولة الاسلام على انهم ان قصدوا بنا شرًّا قمنا باجمعنا عليهم وفينا ولله الحمد الكفاية وعند ذلك يتوسط الانكليز بيننا وبينهم فتكون لنا المندوحة والعذر" . فقال" اما الاستنكاف من الالتجاء الى الانكليز فان القوم (اي العثمانيين) لم يستنكفوا من ذلك واستعانوا بهم ولولا مساعدتهم ما قدروا على اخراج الفرنسوية من البلاد . وقد شاهدنا ما حصل في العام الماضي لما حضروا بدون الانكليز . على ان هذا قياس مع الفارق فان تلك مساعدة حرب واما هذه فهي وساطة مصلحة لا غير . واما انتظار حصول المنابذة فقد لا يمكن التدارك بعد الوقوع والرأي لكم" . فسكتوا وتفرقوا على كتمان ما دار بينهم

ولما رأى انهم لم يوافقوا على ما اشار بهِ انضمّ الى رئيس الكتّاب لقربهِ من الوزير واوهمهُ انهُ يستطيع ان يجمع اموالاً وافرة من الصعيد ان قلدهُ الوزير امارتهُ فانهُ يجمع تركات الاغنياء الذين ماتوا بالطاعون في العام الماضي وليس لهم ورثة ويجمع ايضًا الغلال والاموال الاميرية . فلما بلغ الوزير ذلك اسرع الى اجابتهِ لوجهين الاول الطمع في تحصيل المال والثاني تفريق شمل المماليك ونجح بعد ذلك في قتل كثيرين من رؤسائهم غيلةً . ثم ذهب الالفي الى بلاد الانكليز وعاد منها بالهدايا والتحف الكثيرة كما تقدم . قال الجبرتي ان مدة غيابهِ سنة وشهور وعاد وقد تهذبت اخلاقهُ بما اطّلع عليهِ من عمارة بلادهم وحسن سياسة احكامهم وكثرة اموالهم ورفاهيتهم وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجدٍ وصارت مسامرتهُ لاخوانهِ بعد ذلك في ذكر العدل الموجب لعمارة البلاد وكان يقول لسليمان بك في التمثيل ان الانسان الذي لهُ ماشية يقتات هو وعيالهُ من لبنها وسمنها وجبنها يلزمهُ ان يرفق بها في العلف حتى تدرّ وتسمن وتنتج لهُ بخلاف ما اذا اجاعها واتعبها واشقاها

واضعفها حتى اذا ذبحها لا يجد فيه لحماً ولا دهناً هذا الذي اعتدناهُ وربينا عليهِ فان اعطاني الله سيادة مصر والامارة في هذا القطر لامنعنَّ هذه الوقائع واجري فيهِ العدل ليكثر خيرهُ وتعمر بلادهُ ويستريح اهلهُ ويكون احسن بلاد الله

وصادرهُ محمد علي بعد عودتهِ من بلاد الانكليز واستعان عليهِ بالمماليك انفسهم كما تقدَّم في الجزء الماضي حتى كاد ينتك بهِ فراسل الباب العالي واستعان بالانكليز وكان الوزير حينئذٍ محمد باشا الملحدار واصلهُ مملوك من مماليك السلطان مصطفى فسأل كم عدد مَن بقي من المماليك في مصر فقيل لهُ انهم يزيدون على الفين فقال ارى تمليكهم على شروط نشترطها عليهم اولى من تمادي العداء بينهم وبين هذا الذي ظهر من العسكر . فقرَّ الرأي على عزل محمد علي باشا من ولاية مصر وتولية موسى باشا على ان يدفع الالفي للخزينة الفاً وخمس مئة كيس معجلاً وجاء قبودان باشي الى الاسكندرية ومعهُ الوالي الجديد . وارسل محمد بك الالفي الى ابرهيم بك المرادي وعثمان بك البرديسي لكي يساعداهُ في دفع هذا المال ووعدهما بان تكون السيادة لهما

وبلغ محمد علي ذلك فراسل امراء المماليك وارسل اليهم الهدايا فوقعوا بين من يطلب منهم المال وبين من يدفعهُ اليهم فاختاروا العاجل على الآجل وخذلوا الالفي فظلَّ يمطل القبودان ويحارب رجال محمد علي منتظراً وصول الانكليز لمساعدتهِ الى ان ادركتهُ الوفاة بالهواء الاصفر فقال قضي الامر وخلصت مصر لمحمد علي لا مَن ينازعهُ ولا مَن يغالبهُ وقضي على المماليك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم ثم اوصى ان يدفن في وادي البهنسا واسلم الروح ليلة الاربعاء تاسع عشر ذي القعدة سنة ١٢٢١ (٢٨ يناير سنة ١٨٠٧)

وكان القبودان قد رأى الانشقاق بين المماليك وانهم لا يستطيعون ان يقدموا لهُ المال الذي طلبهُ فعاد الى محمد علي ووعدهُ محمد علي باضعاف ما وعدهُ بهِ الالفي معجلاً ومؤجلاً فارسل الى محمد علي يأمرهُ بارسال عريضة يكتبها لهُ كبراء مصر من المشايخ وغيرهم فكتب العريضة وارسلها مع ابنهِ ابرهيم بك وارسل معهُ هدية حافلة خيولاً وافشة هندية ومفاد العريضة على ما في الجبرتي " ان محمد علي باشا كافل الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبلهِ وقامع المعتدين وان الخاصة والعامة راضون بولايتهِ واحكامهِ وعدلهِ والشريعة مقامة في ايامهِ ولا يرتضون سواهُ لما رأوا فيهِ من عدم الظلم ومن الرفق بالضعفاء واهل القرى والارياف . . . و يرجون من مراحم الدولة العلية ان تبقيهُ والياً عليهم لان جميع اهل البلاد صاروا في غاية من الراحة والامن برّاً وبحراً بحسن سياستهِ وعدلهِ وامتثالهِ للاحكام الشرعية ومحبتهِ للعلماء واهل الفضائل والاذعان لقولهم ونصحهم " الخ . قال الجبرتي ولما كتبوا ذلك لم يطَّلع عليهِ الاَّ

بعض الافراد المتصدرين ولم يكتنوا غيرهم من قراءته بل كانوا يطلبون اختامهم فيختمونهُ بها واذا ابى احد ان يسلّم ختمهُ كتبوا اسمهُ وختموا تحتهُ بختم مشابه لاسمهِ . قال وهذا هو السبب في عدم نقلي صورتها تماماً

"ثم شرع في تقرير فريضة عظيمة على البلاد والقرى والتجار ونصارى الارواموالاقباط والشوام وسائر الناس ونساء الاعيان والملتزمين وغيرهم وقدرها ستة آلاف كيس لكي يهديها الى القبودان وقال انها سلفة لمدة ستة ايام ثم ترد الى اربابها فاتاهُ مرسوم من القبودان ببقائهِ والياً على مصر لان الخاصة والعامة راضية باحكامهِ وعدلهِ بشهادة العلماء واشراف الناس ولكن لايكون لهُ تعلق بثغر رشيد ولا دمياط والاسكندرية فان ايرادها من الجمارك يضبط للترسخانة السلطانية في اسلامبول . ويجب عليهِ ان يرضي الامراء المصريين (المماليك) ويمتنع عن محاربتهم ويعطيهم جهات يتعيشون بها" . وسيتلي عليك كيف ارضى المماليك وكيف ساس البلاد

وفي اوائل سنة ١٨٠٧ وصلت بعض السفن الحربية الانكليزية الى الاسكندرية لكي تمنع رجوع الفرنسويين اليها وتعين المماليك على استرجاع الولاية ولكنها وصلت بعد موت الالفي باربعين يوماً ولم يكن فيها سوى خمسة آلاف جندي بقيادة الجنرال فريزر فدخلوا الاسكندرية ونظموا امورها احسن تنظيم على ما قال الجبرتي وذهبت فرقة منهم الى رشيد بقيادة الجنرال وكوب فدخلت المدينة وهي تظنها مستسلمة لها وانتشرت سيفي شوارعها الضيقة فصوّب عليها الاهالي رصاص البنادق من كوى بيوتهم وسطوحها وقتلوا منها ٦٥ انفساً واخذوا ٢٦٢ اسيراً ارسلوهم الى القاهرة وكان الجنرال وكوب بين القتلى فاضطرّ الذين بقوا من الحملة ان ينتدوا الاسرى بالخروج من الاسكندرية . وابدى محمد علي باشا في هذه النوبة من الحزم وحسن النظر في العواقب ما اشتهر بهِ بعدئذٍ . ثم لما عقد الصلح بينهُ وبينهم قدّم لهم الهدايا من الخيول والاقمشة الهندية وخلع عليهم خلعاً وشيلاناً كشميرية وركب معهم الى الاسكندرية واستلم المدينة منهم ولم تكن من خطتهِ كما تقدم فصارت منها

وحاول الانكليز وهم في الاسكندرية ان يستعينوا بالمماليك فلم يفلحوا وقال واحد من امراء المماليك وكان اكثرهم جنداً اني مسلم هاجرت وجاهدت وقاتلت الفرنسوية فلا اختم عملي بالالتجاء الى الكفّار . وبذل محمد علي جهدهُ حينئذٍ في استرضاء المماليك قال الجبرتي انهُ ارسل اليهم المشايخ فقالوا لهم ان الانكليز تخاصموا مع سلطان المسلمين واغاروا على ممالكهِ وطرقوا ثغر الاسكندرية وقصدهم اخذ الاقليم المصري واذا تملكوا البلاد لا يبقون على احد من المسلمين

وحالهم ليس كحال الفرنسوية لان الفرنسوية لا يدينون بدين واما هؤلاء الانكليز فانهم نصارى على دينهم ولا تخفى عداوة الاديان ولا يصح لكم الانتصار بالكفار على المسلمين ولا الالتجاء اليهم. وذكروا لهم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية. فاجابهم المماليك ان ما قلتموه وابديتموه نعماً ولو تحققنا الامن والصدق من مرسلكم لحاربنا وقاتلنا بين يديه ولكنهُ لا بني بعهد ولا يوعد وظالما غدر بنا وما مرادهُ بمصالحتنا الآن الاَّ تأخيرنا عن الذهاب الى الانكليز. وبعد جدال طويل ذكرهُ الجبرتي مفصَّلاً قال ان المماليك انخدعوا وعقدوا الصلح مع محمدعلي. وكان مشايخ مصر وعلماؤها يحثون الانكليز بالكفار ويحضُّون الاهالي على محاربتهم وهم يرون بعيونهم ما تفعلهُ جنود واليهم بين ظهرانيهم قال الجبرتي انهُ لم يكد الانكليز يخرجون من رشيد حتى نزل الاتراك على الجماد وما جاورها واستباحوا اهلها ونساءها واموالها ومواشيها زاعمين انها صارت دار حرب بنزول الانكليز عليها وتملكها... ثم احاطت العساكر ورؤساؤهم برشيد وضربوا على اهلها الضرائب وطلبوا منهم الاموال والكلف الشاقة واخذوا ما وجدوا بها من الارزاق وقال. بُعَيْد ذلك "انهم افحشوا في التعدي على الناس في الاسكندرية بعد خروج الانكليز منها وغصب البيوت من اصحابها واخذ امتعتها بدعوى انهم انفقوا ما كان معهم في الجهاد ودفع الكفار"

اما المماليك فالظاهر مما كتبهُ الجبرتي مع تشيعهِ لهم ومما كتبهُ غيرهُ من كتاب العصر ان ارضاءهم لم يكن ميسوراً وتأمن البلاد شرهم. ولكن ألم يكن في الامكان ارهابهم واخضاعهم ونفي بعضهم واستخدام البعض الآخر في بعض المصالح التي كانوا قادرين على القيام بها. هذه مسألة يعسر بت الحكم فيها الآن لان وجهيها وجيهان وكيفما كانت الحال لم يكن اغتيالهم على الاسلوب الذي اغتيلوا بهِ من الضرورات لاسيما وان سوء الادارة بقي متسلطاً على البلاد سنين كثيرة بعد اغتيالهم كما لو كانوا فيها. ولم تكن القلاقل الأَرويدًا رويدًا بعد ان ذهبت بالوف من النفوس كأن وباءه دخل البلاد وعاث فيها ثم انقرض منها بعد ان فتك بكل المعرَّضين لهُ من اهاليها ولم يسرع زوالهُ بإحراق بعض القرى والكفور

نكبة المماليك

اما نكبتهم فكانت على هذه الصورة. لما كان شهر صفر من شهور سنة ١٢٢٦ قلَّد محمد علي باشا ابنهُ طوسون باشا قيادة الركب الموجَّه الى الحجاز لقتال الوهابية وقال انهُ عازم على ارسال جنود الى الشام بقيادة شاهين بك الالفي لمساعدة يوسف باشا والي دمشق على استرداد الولاية من الجزار وطلب من المنجمين ان يختاروا وقتاً صالحاً لالباس ابنهِ خلعة السفر

فاختاروا لهُ الساعة الرابعة من يوم الجمعة (٦ صفر) فلما كان يوم الخميس ارسل المنادي ينادي في الاسواق ويدعو كبار العسكر والامراء المصرية الالفية وغيرهم ليحضروا الى القلعة ويركبوا امام الموكب وهم بافخر حللهم فلما اصبح يوم الجمعة ركب الجميع وصعدوا الى القلعة وصعد المماليك كلهم باتباعهم وجنودهم ودخل امراؤهم علي محمد علي باشا وحيوهُ وجلسوا معهُ حصَّة وشربوا القهوة فباسطهم في الكلام ثم سار الموكب على الوضع الذي رتبوهُ وكان الباشا قد اسرَّ الى بعض خواصهِ ما يريدهُ من الغدر بهم وقتلهم كلهم حتى اذا صار المماليك في المضيق المنحدر بين الباب الاعلى والباب الاسفل (باب العزب) أُغلق باب العزب في وجههم وكانت الجنود قد وقفت على جانبي الطريق على نقر الحجر والحيطان فصوبت عليهم رصاص البنادق فدهشوا واستلوا سيوفهم ولكن لم يمكنهم التقدم ولا التأخر ولا نفعتهم خيولهم وفراستهم فتيلاً فسلوا للقضاء وبقي الرصاص ينصبُّ عليهم الى ان قتل كثيرون منهم وتمكَّن الباقون من الرجوع والوصول الى الساحة الوسطى فادركهم الحمام هناك فقتلوا كلهم وكل من تزيا بزيهم ولو لم يكن منهم. وفتشوا عمن تخلف منهم في القلعة ولم يخرج مع الموكب فاحتزوا رأسهُ وظلَّ القتل مستمرًّا فيهم من الضحى الى ان مضت حصَّة من الليل ومثَّلوا بكبارهم تمثيلاً شنيعاً. وانتشر الجنود في المدينة كالجراد يفتشون عنهم ويقتلونهم وينهبون البيوت ويهتكون الحرائر ويسلبون ما على النساء من الحلى حتى انهم ليقطعون زند المرأة اذا عسر عليهم نزع السوار منهُ. واصبح يوم السبت والنهب والقبض والقتل مستمرة وركب الباشا في الضحى وحولهُ امراؤهُ الكبار مشاة وامامهُ الصقافية والجاويشية يزينتهم وملابسهم الفاخرة والجميع مشاة ليس فيهم راكب سواهُ والفرح والسرور بقتل المماليك طافح على وجوههم فكان كلما مرَّ على ارباب الدرك ووقف ويخهم على النهب. وخرج اليهِ شخص من تجار المغاربة وصرخ في وجههِ وهو يقول "ايش هذا الحال وايش لنا علاقة حتى ينهبنا العسكر ونحن اناس فقراء مغاربة متسببون ولسنا مماليك ولا اجناد". فوقف اليهِ وارسل معهُ نفرًا الى دارهِ فوجدوا فيها شخصين احدهما تركي والآخر بلدي وهما يلتقطان آخر النهب وما سقط من الناهبين فامر بقتلهما فاخذوهما الى باب الخرق وقطعوا رأسيهما. ونزل ابنهُ طوسون واجناز في المدينة وقتل واحدًا من الناهبين فانكفَّ العسكر عن النهب ولكن استمرَّ القبض على المماليك وكل من تزيا بزيهم فقتلوا كلَّ من وجدوهُ منهم ولو شيخًا هرمًا وارسلوا الى كشاف النواحي والاقاليم ليقتلوا كل من وجدوهُ فيها فجعلت رؤوس القتلى ترد الى القاهرة من اليوم التالي وكانت توضع عند باب زويلة وباب القلعة. وقدَّر الجبرتي عدد من قتل من المماليك واجنادهم باكثر من الف نفس ولم ينجُ من الالفية الاَّ احمد

بك زوج عديلة هانم بنت ابرهيم بك الكبير فانهُ كان غائبًا في ناحية بوش وامين بك فانهُ تسلق من القلعة وهرب الى ناحية الشام . وبقي من المماليك نفر عودهم التكيل وذهبت بقيتهم الاخيرة الى بلاد السودان فاستوطنتها وعاد البعض منها الى مصر في حالة يرثى لها من الفقر والذل . وانقرضت دولة عظيمة بقيت في القاهرة من آثار مجدها ما لم تبقهِ دولة اخرى

قال الدكتور منديشي وكان طبيبًا لمحمد علي انهُ دخل عليهِ حينئذٍ وهو في القلعة بعيد المذبحة وهنأهُ بفوزهِ على المماليك فلم يجبهُ بل التفت يمنةً ويسرةً لئلا يقوم احد من تلك الجثث المطروحة امامهُ وينتقم منهُ ثم طلب كأس ماء يبرد بهِ ظمأهُ لانهُ كان في اشد الاضطراب والقلق لئلا يفسد عليهِ عملهُ فتكون فيهِ آخرتهُ

ولما انقضى امر المماليك وجد محمد علي عنايتهُ الى اصلاح القطر المصري وقمع ثورة الحجاز وفتح بلاد السودان والاقتصاص من عبد الله باشا والي عكاء . وسنبسط الكلام على ما يتعلق بموضوعنا من ذلك في الجزء التالي

آلة الطيران

جاء في السينتفك اميركان ان الدكتور مونتغومري من اساتذة كلية " سانتا كلارا " شرع منذ نحو عشرين سنة في الدرس والتنقيب حتى اكتشف امورًا جديدة عن الانتقال في الهواء تختلف عما هو معروف عند العلماء فصنع بمساعدة استاذ الطبيعيات في الكلية المذكورة آلة تربط بالبلون اذا ركبها الانسان وطار البلون بهِ ثم فصلت عنهُ هبطت براكبها الى الارض رويدًا رويدًا واستطاع ان يديرها كيف شاء وينزل بها حيث شاء على مقربة من المكان الذي هي فوقهُ

وفي اواخر ابريل الماضي اراد تجربتها للمرة الخامسة في مشهد عمومي وكان قد جربها اربع مرات قبلاً ولم يسمح بمشاهدتها الاَّ لنفر قليل . وكان النسيم عليلاً والشمس مشرقة فملأ البلون غازًا وركب الرجل الذي نيطت بهِ تجربة الآلة مثل السرج منها ورجلاهُ متدليتان كما تتدلى رجلا راكب الدابة ثم اطلق البلون فسار يشق العنان صعدًا وما زال يرتفع حتى غاب عن الابصار وبات الناس لا يرون منهُ غير نقطة سوداء في قبة السماء . ولما صار على علو اربعة آلاف قدم قطع الراكب الحبل الذي يصل البلون بالآلة فهبطت الآلة فجأة نحو مئة قدم ثم استعادت موازنتها واخذت تهبط رويدًا رويدًا وكانت حركتها اشبه بحركة ورقة ترمى الى اسفل والهواء ساكن هادئ